الأدب الأسود

للأستاذ عبد الفتاح الديدى

مسكين الأديب !

مسكين لأن الناس بتتالى العصور وتوالى الأيام قد ركبوا فى رءوسهم فكرة لا يريدون أن يتزحزحوا فيها ولا يحبون أن ينثنوا عنها . فمنذ قديم نسبت الحكمة إلى الأديب وعرف بالأخلاق الحميدة بين الناس وشاع عنه أنه واحد من هؤلاء الأفراد الذين يخدمون الفكرة حتى الموت ، ويقومون فى محراب الفن والتأمل بتقديس المثل الأعلى مهما بلغت خسائرهم فى الروح ومهما أصابهم الإملاق من ناحية الرزق . ولو صدق مايقوله المؤرخون الأدباء من أن كلمة الأديب قد عرفت فى العصور الأولى من حياتها بأنها التهذيب الخلق ، وأنها قد أخذت أخذا من مجال التربية لتوضع وضعا فى قاموس اللغة والأدب ، لعرفنا مقدار الصعوبة التى يجدها الأديب الآن فى معاشه اليومى . إنه الوحيد الذى يلزمه الناس — من بين أصحاب الحرف جميعا — بالمحافظة على سمعته والاحتفاظ بكرامته والتعالى عما يدنس نفسه من الفعال .

ولا أحسب أن هذه الضرورة قد نشأت من شىء إلا من هذه الفكرة الخاطئة التى ملأت نفوس العامة بالنسبة إلى الأديب فى الأزمنة الماضية ، ثم بقيت لنا حتى اليوم بآثارها البالية من غير أن تنحرف قيد أنملة عما كانت عليه فى الأصل . إن الأديب كغيره من عباد الله يريد أن يعيش ، على الأقل كما يعيشون ، ويتشوف إلى حياة كريمة ، لا تليق بمهمته القدسية ، وإنما تليق بكرامة البشر العاديين ... ومع هذا فهو مطالب بأكثر مما تحتمله الأساود الضاربة فى المغارات والأدغال ، ومحمل بالمسئولية التى توجع ظهور النوق فى مستهل الرحيل .

الا لعنة الله على هذه الحرفة التى يموت صاحبها من الجوع ويعانى من جرائها كل آلام الفقر والمرض ثم يطالب بعد هذا كله أن يكون عفيفا فلا يطلب ، وأن يكون كريما فلا يخضع ، وأن يكون متكبرا فلا يجارى . إنهم يريدون له أن يحقق ذلك المفهوم الذى اتفقوا عليه فيما بينهم بخصوص الأخلاق والمبادىء .

وتسألهم من ثم إذا كانوا يقتنون له كتبا أو يملكون من آثاره ونتاجه شيئا فيجيبونك بالنفى القاطع . ولو أحببت أن تعرف تفسيرا معقولا لهذا العمل أو إذا دفعك الفضول لأن تقف على السر فى عدم الاقبال عليه لأخبروك بأنه لايكتب فى موضوعات مستحبة ولا يعالج المسائل الشيقة ولا يتناول بقلمه تلك المشاكل القريبة إليهم الأثيرة عندهم .

أفليس هذا بالشىء الغريب حقا ؟ يطالبون الأديب بأن يكون داعية للخير وبوقا من أبواق السلام وواعظا أو ناصحا بين الشباب .. فإن تمشى مع رغائبهم وجارى ميولهم ملوه وسئموا منه ، واحتجوا فى النهاية بأنه لايحاول الكتابة السهلة اليسيرة فى الموضوعات التى تلائم نفوسهم وتتعلق بالظروف التى تحيط بهم ، فيضطر تحت تأثير الحاجة والعوز إلى أن يلفت أنظار القراء وأن يقربهم بالحكايات المبتذلة والروايات الرخيصة ، أو أن يكون دعامة لحزب من الأحزاب ومناديا لمذهب من المذاهب ، أو أن يكون بهلوانا يعرض عليهم صنوفا من قفزاته ، ويسوق إليهم السخيف من شطحاته . وعندئذ تراهم يتهامسون : لقد زل فلان وانحدر من مكانته الرفيعة وهبط من قمة التفكير والتأمل إلى كلام الأزقة وروايات الماجنين . ويطالبونه فى الحال بأن يعود من حيث أتى ، وأن يدبر من حيث أقبل ، مهما كانت البطن فارغة والحال رقيقة .

كيف يكون هذا بالله ؟ أهذا منطق يقبله الدماغ ويرضى عنه الحس والشعور ويؤيده شىء من واقع أو شىء من خيال ؟ ليت القراء يعرفون أن الأديب إنسان من دم ولحم ، وأنه يريد أن يقتات ، وأنه من الضرورى بالنسبة إليه أن يأوى إلى بيت وأن يتستر بالملابس . وليتهم فى الوقت نفسه ينزعون من رءوسهم هذه الفكرة الخاطئة التى تمسكوا بها عن الأديب ومهمته ، أو على الأقل يدعونه كغيره من خلق الله حتى يحصل على مايحقق له حياة فيها بعض الهدوء والاطمئنان . هذا مع العلم بأن الأديب هو أعجز الناس وأقلهم حولا وأضعفهم سلاحا ، وأنه مهدد كما لايمكن أن تهدد الحياة إنسانا سواه وإذا هبطت به إلى المعيشة الاجتماعية فستلمس هذا كله بوضوح عندما تصطدم أحلامه بمطامع الناس وأمانيهم العملية .

فن الغبن للأديب أن نطالبه بنوع معين من الكتابة وأن نحظر عليه الكلام في غير ما يريده له الناس . دعوه يقول فيما يشاء وكما يشاء ، حتى إذا جاء وقت الحساب ، ذرواشره واتركوا آثامه وتعلقوا بالجانب الممتاز الذي ينتجه في ظلال العيش الكريم لماذا يتاح للموظف مثلا أن يستغل نصف نهاره في العمل التافه القيم من أجل أن يعيش كريما ممتازا في نصف نهاره الثاني ؟ ألا يرى الانسان العادي فيم يمضي نصف وقته وكيف يستغل عقله استغلالا رخيصا حتى يستبقي لنفسه بعض الساعات التي يحقق فيها كل ما يرجوه من عزة وإباء وعيش كريم ؟ وكذلك أدب الأديب . . فليس كله متساويا من ناحية القيمة والدرجة وإنما بعضه عماد للبعض الآخر ، ونصفه الثاني عالة على نصفه الأول . إذا قام الأديب بالدعاية في صف الأحزاب السياسية فلكي يضمن لنفسه بعض الساعات التي يخرج فيها القصيدة التي تشجيك والفن الذي يرضيك والعمل الأدبي الذي يطربك . وإذا استحل لنفسه أن يكون رخيصا عند الوصف ومتبذلا في الكشف وفاجرا من ناحية انتقائه للموضوعات فذلك كله على أساس أن يتحصل على الدريهمات التي تضمن له بعض الوقت والتي تمكنه من التفرغ للعمل القيم والمؤلف الثمين .

ثم لاحظ شيئا آخر ، وهو أن ما اصطلح الأدباء الأوربيون في العصر الحاضر على تسميته بالأدب الأسود ، ويعنون به ذلك الأدب الصريح في مسائل الجنس ، أو ذلك الأدب الذي يهتم بنواحي الضعف في الانسان ويبرز جوانب الحياة المظلمة ، إنما هو نتيجة طبيعية لعدم الرغبة في القراءة لدى الناس . فقد أصبحت القراءة ثقيلة على نفس الانسان المتمدن وصار يقتصر في استقاء معلوماته على ما تتحفه به الصحف اليومية . وأصبح الأديب المتخصص في خطر الشغوليات الحيوية والدواعي المادية التي تكاثرت حول الانسان وجعلت تتخاطفه تخاطف التجار على الزبون الحائر . فهم غير مستعدين لأن يبقوا على بضع ساعات من يومهم للقراءة الخالصة الرفيعة والاطلاع على مسائل الفكر والروح . ومن هنا ترى الأديب قد اضطر اضطراراً إلى أن يتناول بقلمه بعض النواحي التي تجذب القراءة ، وأن يقص بطريقة شيقة بعض الحوادث الخاصة التي يبدعها خياله من طبيعة الصلة فيما بين الرجل والمرأة . لقد فطن الأديب إلى مدى التأثير الذي تحدثه هذه المسائل في نفس القارىء فشاء أن يلفت نظره بواسطتها حتى يستولى على دراهمه أولا ، ثم من أجل أن يحبب إليه الفكرة التي تستعصى على فهمه ، والتي ما كان ليقبل عليه ويتدبرها ثانيا .

فالأدب الأسود أو الأدب الذي يخاطب الغرائز الانسانية طبيعي جدا في هذه الآونة بالذات بعد أن استحال على الأديب أن يجد رزقه بين مخالب الآدميين من حوله ، وبعد أن أصبح من العسير أن يقبل القارىء من تلقاء نفسه على الأدب الخالص والفكر البحت فلا يلومن أحد أديبا لأنه استثار غرائز القراء ، أو لأنه خاض في تلك الروابط الخفية المستترة فيما بين الرجل والمرأة ؛ فشأنه بالضبط في هذا العمل شأن التاجر الذي يعلن عن نوع بضاعته فوق لوحة قد رسم عليها امرأة عارية . أو شأنه شأن الأنثى التي تتبرج قليلا من أجل أن تصيد الزوج في الحلال .

فن ناحية المبدأ نحن نريد أن نزيل من رؤوس الناس هذه الفكرة التي شاعت بينهم عن مهمة الأديب ؛ إذ نحن نؤمن بحق الأديب في أن يتكلم كما يشاء ، وفي أن يختار وسائله كما يحلوله ، وفي أن يستعين بكل ما من شأنه أن يجذب القارىء وأن يدفعه دفعا إلى الاقبال على الكتب والنظر في الصحائف . فهذا كله يؤدي إلى عناية الانسان المتمدن بالقراءة وإلى أن يظل مستوى التعليم محتفظا برجاته ومقوماته عقب خروج الشبان من معاهد التعليم . ومن نتيجة ذلك أيضا أن الأديب يستطيع أن يوصل أفكاره إلى أدمغة الناس وأن يشترك مع الصحافة اليومية والمحاضرات العامة ووسائل الثقافة الاجتماعية في ترقية المستوى والاحتفاظ بالمنسوب الحضاري . ثم يلاحظ من ذلك أن الأديب لابد له أن يعيش في المجتمع الحديث مثلما تضطره الحياة إلى أن يكون . أعني أن الأديب في العصر الحاضر ملزم بأداء بعض المهمات التي لم يكن الأديب في العصور السالفة مسئولا عنها ولا مطالبا بها . أديب العصر الحاضر هو الانسان المتخصص في الفن الذي لا يؤدي إلى فائدة مادية فعالة ؛ ولا يعطي مكسبا ظاهراً ولا يجنى محبذوه ومشجعوه غير أو جاع القلب وهواجس النفس . هذا بينما تلح الحياة من حوله — بكل مظاهرها العملية وبكل مقوماتها المادية — على نبذ الأشياء المثالية وإهمال الكماليات ،

فالعلم والميكانيكا والطب والهندسة وغيرها من المواد التي يثقف بها الناس والتي يقبل عليها غالبية الشبان ، تعود عليهم في أوقات وجيزة بالخيرات المضمونة وتجعل مستقبلهم حافلا بالأعمال والوظائف الهامة ، أما الأدب فتستطيع أن تصف أهله بأنهم طائفة من الفارغين البطالين ، وهذا صحيح في الوقت الذي لا تضمن من صناعة الأدب غير التفرغ لأعباء ثقيلة تشغل منك الساعات الطوال وتتطلب منك الجهد الكثير ولا تجازيك بعد ذلك إلا أيسر الجزاء.

في هذا الخضم الهائل من الشهوات المتضاربة تريد أن نوقف الأديب مكتوف الأيدي وأن نحرم عليه نفس الوسائل التي يتاجرها سواه من الناس، والتي يحصلون بها على الأموال المكدسة والثروات الطائلة ! وباسم الإنسانية والمروءة وأخلاق الفضل والكرامة نتقدم إليه حاملين أكاليل الورد وأكفان الموت كيما نحمله آسفين إلى بطن الثرى ، مترحمين على شبابه النضر

فالأدب الأسود إذن هو صرخة طبيعية من جانب الشاعر الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك المحتوم ، وانقلاب ضروري على مظاهر الحياة التي تلزمه وحده من بين الآدميين جميعا ودون أصحاب الحرف قاطبة بأن يكون عفيفا شريفا مكرما ! ليس هذا فحسب ، وإنما يشعر الأديب في قرارة نفسه بأن أعماله توجب عليه شيئا من النزول أو الارتفاع كما نستطيع أن نقول إلى الجوع كيما يخلق من بينها طائفة من القراء إن الأديب لم يعد قادرا على الاكتفاء بالطبقة الوسطى حيث يظهر عادة هواة الفن وطلاب اللذة الروحية في الكتب والآثار ، ولابد له إذا شاء أن يكون من بين قرائه عمال وتجار، وأن يستطعم كتاباته المتخصصون وغير المتخصصين ، وأن يتحبب لدى الطبقة الكادحة من أبناء الشعب ليصيروا من بين قرائه أقول إذا شاء الأديب أن يكون على هذا النحو فلابد له من أن يخاطب الغرائز أحيانا ، وأن يؤثر على أصحابها ذلك التأثير الذي يخدرهم ساعة دفع الثمن إلى الكتب ، وإلا فسيظل محكوما عليه إلى الأبد بأن يخاطب طائفة معينة وأن يقتصر تأثيره على وسط بالذات وألا يتعدى هذه الحدود المصطنعة التي أوجدها هو بيديه عند ترفعه وادعائه للتسامي ...

لقد آن للأديب أن يخاطب أبناء عصره مباشرة وأن يحصل على المجد — إن صح أن هناك مجداً — وهو حي يرزق . أما أن يسلم كلامه للمؤرخين كيما يحكموا له أو عليه وأن يحتفظ بكتبه وآثاره لتكون مصدر لذة وسبباً في متعة الأجيال التالية فهذا مالا يقبله عقل ولا يسلم به منطق . إذا كنت كاتباً فأنا كاتب بالنسبة إلى هؤلاء الناس والأفراد الذين يعيشون من حولي ، وقرائي هم هذه الطائفة التي تعاصرني في الزمن ويستحيل أن أقتصر من وراء كدحي على إفادة قوم ليسوا مني في شيء . إنني وليد هذا العصر بظروفه وأوضاعه ، ومصدر الوحي عندي هم هؤلاء الذين يعيشون في هذه الفترة ، والتجاوب فيما بيني وبينهم هو كل مالي من أمل ورجاء فوق الأرض ، فإذا تنازلت عن هذا الحق — أو عن هذه الضرورة ، كما ينبغي لها أن تكون — فأنا أفقد عنصراً أساسياً في عملي الفني ، وفي الوقت نفسه سأجد فرصة إذا أصابني الفشل ، لأزعم أنني واحد من هؤلاء الذين يسبقون أوانهم ويتقدمون عصرهم . وهذا غير طبيعي عندما أكون مالكا للأداة أو الوسيلة التي تعينني على تحقيق أغراضي والتي تكفل لي كل ماأتمناه على أيدي القراء « المختارين » من رخاء ومجد ، وتلك هي وسيلة الإغراء بالكتابات المكشوفة .

بعد هذا نحاول أن ننظر في المضرة التي تنجم من جراء الصراحة الجنسية والتأثير الغريزي فإذا بالحقيقة تشدهنا وإذا بالتجارب تسخر منا للأسباب الآتية : أولا لأن هذا العمل من جانب الأديب الحريص يكون أجدى على قارئه مما لو استخدم الجد والوقار والفضيلة، وثانياً لأن هذه المسائل لم تعد جديرة بأن يتحفظ الانسان عندما يتكلم فيها ويذكر تفاصيلها كما هو الحال من قبل . وثالثاً لأن الأسلوب الرمزي قد يؤدي إلى أخطر النتائج في التأثير على نفسية القارىء كما أنه يسهل على الأديب — وهذه هي العلة الرابعة — في تلك الآونة أن يملأ دماغ القارىء بما يجب أن يذيعه من البادىء والآراء ، ذلك أن القارىء يكون في حالة التأثر بما يقرأ في هذه الناحية شديد الحساسية مرهف الشعور ، فينتهز الكاتب تلك الفرصة من أجل أن يقحم الأفكار إلى رأسه فيكون — لها مفعولها في روحه ووجدانه وعقله جميعاً

وهكذا ترانا في جانب هذه الطائفة من الأدباء الذين استطاعوا أن يعرفوا موقفهم بالضبط وأن يدركوا مهمتهم على الوجه الصحيح فإذا طالبت إلى أن أقول كلمة واحدة في هذا الباب تواريت واستحييت ، وطلبت منك الغفران لهذه الظاهرة التي تلمسها بوضوح فينا جميعاً ، وهي أننا نقفز بالعقول إلى الأشياء التي لم تستطع عواطفنا بعد أن تتقبلها راضية مطمئنة .

عبد الفتاح الديدي